تاريخ القرآن

تأليف

دكتور عبد الصبور شاهين

اسم الكتاب: تاريخ القرآن.
المؤلف: د. عبد الصبور شاهين.
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.
تاريخ النشر: الطبعة الثالثة ـ مارس 2007.
رقم الإيداع: 2005 / 8609
الترقيم الدولي: ISBN 977-14-3042-4

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى ـ المهندسين ـ الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس: 3462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة ـ مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) ـ فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى ـ الفجالة ـ
القاهرة ـ ص. ب : 96 الفجالة ـ القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) ـ فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أى جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابى صريح من الناشر.

إهـــــداء

إلى زوجتى، وفاءً بحقها، وعرفانًا بفضلها، وإنى لأحس فى أعماقى أن ما منحتنيه من عطف ورعاية هو مثال تأتسى به بنات حواء، مَنْ رافقت منهن أحدًا من العلماء أو الباحثين.

عبد الصبور شاهين

كلمة لهذه الطبعة

تخرج هذه الطبعة من تاريخ القرآن والجو مشحون بالكثير من الكتابات العدوانية التى تستهدف القرآن، شكلاً ومضمونًا، ففى الساحة الثقافية أدعياء كثيرون يخوضون فى علوم القرآن بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، وقد أشعلوا فتنة علمانية يريدون بها أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون، أو المشركون، أو العلمانيون.

وأخطر ما فى هذا الموقف أن هؤلاء الأدعياء الخائضين فى آيات الله، وفى تاريخ القرآن، وفى موضوعات الفكر الإسلامى يحرصون ـ كلما حوصروا ـ على تأكيد أنهم مناصرون للإسلام، وأنهم أعمق إيمانًا من دعاته، وأن العلمانية هى جوهر الدين، رغم أن حقائق الثقافة المعاصرة تؤكد أنهم دعاة إلحاد، وأن شرط العلمانية أن يخرجوا من العقيدة، ولا بأس عليهم أن يتظاهروا بها خداعًا وكذبًا ونفاقًا.

إن هؤلاء العلمانيين آيلون حتمًا إلى السقوط، مهما شغلوا من مناصب ومهما تلقوا من دعم ماسونى، بل مهما علت أصواتهم، وتجمعت جرذانهم، وعوت ذئابهم، لأنهم لا يواجهون هملاً من أمثالهم، بل هم يحاربون الله ورسوله ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾، فهم فى النهاية زبد لا بقاء له : ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فى الأَرْضِ﴾.

وعندما تنحسر هذه الموجة عن مجتمعنا الإسلامى سوف يدرك الناس أن وعد الله بنصرة الحق، وخذلان الباطل ـ لا يتخلف أبدًا ، ولسوف يرون أنَّ طعنهم فى القرآن، وتأويلاتهم المجترئة عليه لم تبلغ منه إلا ما تبلغه القشة من السيل الهادر، وذلك وعد الله القادر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾، ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

المحـــرم: ١٤٢٦هـ
فبـرايـر: ٢٠٠٥م

عبدالصبور شاهين

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

شغلنى أمر تاريخ القرآن ومشكلاته منذ بعيد، منذ عقلت ما تنطوى عليه حركة هذه الأمة التاريخية من حيوية، وما لف هذه الحركة من ضباب القرون، حتى أصبحت مشكلاتها التاريخية راسبة تحت طبقات يضغط بعضها على بعض، ولا يكاد يظهر منها على السطح سوى ملامح طفيفة، هى ما يعده كثير من الناس جوهر هذه المشكلات، وهيهات..

والذين يطالعون عبارة (تاريخ القرآن) كثيرًا ما يتصورون أن الأمر من الوضوح بحيث يكفيهم بشأنه صفحات يسيرة، تلم بجوانب هذا التاريخ المضىء الضخم، الذى هو فى حقيقته تاريخ انبثاق هذه الأمة المجيدة بحضارتها الخالدة، وكأن تاريخًا على هذه الدرجة من الخطورة يمكن أن يكون بسيطًا خاليًا من التعقيد، مجرد أحداث جرت فى زمان ومكان معينين، يمثل الزمان والمكان كل ما فيها من أبعاد.

إن أخطر أبعاد هذا التاريخ هو البعد النفسى للعناصر المختلفة التى تواردت على مسرحه؛ المؤمنون الذين حملوا راية العقيدة دفاعًا عن دين الله، والملحدون الذين أنكروا عليهم حقهم فى تحقيق غايتهم، والمنافقون الذين لعبوا على الحبلين، وطعموا حلالاً وحرامًا فى آن، فكانوا أضرّ على الدين من عتاة الملحدين. وتضارب هذه العناصر وتداخلها، ثم تضاعف تأثيراتها على مر الأجيال، واختلاف الأحوال، وتقلب الزمن، وتموجه بالكثير من المبادئ والفلسفات، ثم العصر الحديث وما قذفنا به الاستعمار من تيارات يتربع على قمتها الاستشراق بأشكاله المتباينة مظهرًا، المتوافقة حقيقة وهدفًا ـ كل ذلك وما فى أضعافه وثناياه قد ألقى على الوقائع التاريخية ظلالاً متراكبة، وأضاف إلى حقائقها أمواجًا من التضليل والتشكيك، والكذب والتلفيق، سترت جوهر الحقيقة، بل دفنته، فلم يعد لنا منه غير قشور تتعاطاها الأقلام، وتجترها المطابع.

ذلكم هو شأن تاريخ القرآن، هو تاريخ حافل بالعناصر مليء بالمشكلات، غير أن الزمن قد باعد بين الناس وبينها، فلم يعودوا يهتمون منه بغير بضعة أخبار تقادمت لكثرة ما لاكتها الألسن، أما البحوث الجوهرية فى ذلك التاريخ فقد عافتها محاولات الباحثين؛ لصعوبتها ـ غالبًا ـ تارة، ولغلبة منطق النعامة تارة أخرى، حين تشيع فى مجالاتها العلمية دعوى التحفظ أو التوجس من نبش المطمور، فربما كان فى الكشف عنه ما يؤذى ويفزع!!!

وقد كدت أتهيب الخوض فى هذا المجال، لاتصاله بمزالق عقدية من ناحية، ولغموض كثير من مادته من ناحية أخرى.

لكنى أقدمت آخر الأمر اقتناعًا منى بأن خير حل للمشكلات هو مواجهتها، لا التهرب منها، وأن مشكلة خطيرة كهذه تظل كالجرح الحى ينزّ بالآلام ما أُهمل علاجه، أو تولته أيدى معالجين لا يدركون علته، وأقبلتُ على المشكلة تملؤنى الرهبة والحيرة معًا.

أما الرهبة: فلأن فى هذا التاريخ أحداثًا كثيرة، وأسئلة لمّا يُجب عنها البحث العلمى إجابة شافية.

أولاً: لقلة ما بذل فى هذه السبيل من محاولات؛ فإن الكتب التى صدرت عن هذه المشكلة قليلة جدًّا، لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة.

وثانيًا: لأن هذه المحاولات القليلة قد ابتليت بالعقم تارة ـ لسطحية مستواها ـ وبالغرض تارة أخرى؛ لأن كتّابها مستشرقون، وأكثرهم لا يحملون بين جوانحهم روح التعاطف مع تراثنا، فهم لذلك يتصيدون الشبهات، ليؤسسوا عليها أحكامًا، على ما سيظهر بعد.

وعيب كتّابنا الذين تعرضوا لتاريخ القرآن أنهم يغمضون أعينهم عن أسئلة كثيرة تثيرها دراسات الاستشراق، ويسوقون حديثهم فى ثوب تقريرى، يفترض فى قارئيه دائمًا التسليم بكل ما يقال.

وآفة المستشرقين أنهم يسوقون مجرد الاحتمالات العقلية مساق الحقائق المسلمة، ويقيسون الماضى ـ الذى لم يكن يومًا جزءًا من تاريخهم؛ وبالتالى لم يكن من مكونات ضمائرهم ـ بمقياس حاضرهم، مع تباين المكان، والزمان، والعقلية والروح. وآية ذلك أنهم يغضون أبصارهم عن الطابع الميتافيزيقى، الذى نشأت فى

ظله أحداث التاريخ القرآنى على عهد النبوة، ويرفضون مناهج المسلمين فى نقد الأخبار ورواتها، وبحسبنا أن نقرأ عبارة (آرثر جفرى) فى مقدمته لكتاب المصاحف، يصف منهج أهل التنقيب ـ يعنى باحثى المستشرقين ـ قال: «وأما أهل التنقيب فطريقتهم فى البحث أن يجمعوا الآراء، والظنون والأوهام، والتصورات بأجمعها؛ ليستنتجوا بالفحص والاكتشاف، ما كان مطابقًا للمكان، والزمان، وظروف الأحوال، معتبرين المتن دون الإسناد».. إلخ، ثم قال فى وصف رد الفعل الذى قوبل به كتاب المستشرق الألمانى (نولدكه) Noldeke (تاريخ القرآن): «ولما ظهرت الطبعة الأولى من كتاب نولدكه تجنَّى عليه بعض أصحاب النقل فى الشرق، واتهموه بالطعن فى الدين، وزعموا أن الذين يتتبعون هذه الطريقة ليسوا خالين من المحاباة فى أبحاثهم، مع أن إنصافهم وصدق نياتهم، وعدم محاباتهم ظاهر، ويتبين من كتبهم أنهم لا يرومون إلا الكشف عن الحق، وكان عيبهم الوحيد فى أعين أهل النقل أنهم يعتبرون المتن دون الإسناد، ويختارون من آراء القدماء ما يطابق ظروف الأحوال من أسانيد ـ متواترة كانت أو ضعيفة ـ فكثيرًا ما تناقض نتائج أبحاثهم بهذه الطريقة تعاليم أهل النقل، الذين قد عرفوا بين العلماء من زمن بعيد[1]».

ولو أن هؤلاء المستشرقين قيدوا محاولاتهم بمناهج النقد الإسلامية، فى انتقاء الأخبار، والرواة؛ لما خالفت أحكامهم أحكامنا، ولكتبوا للقرآن تاريخًا نموذجيًّا، فيه الكثير من الصواب، والقليل من الزلل.

ولو أن كتّابنا اتبعوا طريقتهم فى البحث، والافتراض، والبرهنة والاستنتاج، مع التزامهم بالمناهج الأصلية فى نقد الروايات والرواة لبلغوا فى فهم هذا التاريخ مبلغًا بعيدًا.

ولكن هكذا جرت الأمور، ما بين استهانة، واستسهال، وهكذا كانت رهبتى من اقتحام المشكلة المخوفة.

وأما الحيرة: فلأن المصادر التى يمكن أن تتخذ نقطة انطلاق فى بحث عن مشكلات تاريخ القرآن ـ وعن القراءات الشاذة بخاصة ـ لابد أن تتوفر ـ مطبوعة كانت أو مخطوطة ـ والأمر هنا بالعكس، فالمطبوع منها نادر الوجود، والمخطوط أغلبه مفقود. وإذن؛ فالمادة المتاحة ـ فيما كان يبدو لى ـ لا تكفى لإعطائنا نماذج معبِّرة تمام التعبير عن حقيقة المشكلة وعناصرها، فأية أحكام تصدر ستكون عرضة للانتقاض كلما جدّ فى المجال جديد.

(١) كتاب المصاحف ـ المقدمة ص ٤.

هذا من حيث كون المشكلة دائرة حول تاريخ القرآن، فأما من الوجهة الفنية فهي مشكلة تاريخ العربية الفصحى، وللقيام بدراسة لغوية فى القراءات الشاذة مثلاً ـ وهى التى يعتبر هذا الكتاب مدخلاً إليها ـ ينبغى أن تتوفر لدينا الأمثلة والشواهد والشوارد، مما ينتمى إلى اللغة الفصحى القرشية، وما ينتمى إلى اللهجات الأخرى المقاربة لها فى الفصاحة، أو المنحطة عنها قليلاً أو كثيرًا، فكثرة الأمثلة الواردة تمنحنا مزيدًا من الطمأنينة عند إصدار أى حكم، وهو أحرى ألا نتهم بالإيغال فى الميتافيزيقية فى التفكير وفى البحث اللغوى، الذى يتجه الآن بكل قوته إلى المعمل، ومن هنا تضاعفت حيرتى أيضًا.

والقراءات صنو النحو، وهى أداء إلا أنها رواية، لكن توالى القرون عليها قد أحالها شيئًا جامدًا، فعَزَلَ جانبًا كبيرًا منها بتهمة الشذوذ، ثم قصرها على جانب التلقّى دون النظر النقدى والتحليلى، لما تحتوى من قضايا صوتية ولغوية ونحوية. وقد كانت أجدر أن تتوالى عليها البحوث فى القديم لإنضاجها، علمًا ذا أساس من الرواية والنقل متين، وفنًّا يتصل بكيفية النطق على مر العصور، فهو سجل للظواهر النطقية الحية، كما أنه محافظ على المأثور من طبائع اللسان العربى، فى الفصحى، وفى لهجاتها.

ولكن إهمال هذا الجانب لسبب أو لآخر قد عفى على أهمية المادة، وجاء العصر الحديث فلم يلتفت إليها أحد، وإنما كان بعض العلماء والمستشرقين يتعرضون للمشكلة تعرضًا، وفى ثنايا التعريف بالقرآن، دون أن يعالجوا قضايا الصحة والشذوذ، واتصالهما بمستويات الخطأ والصواب اللغوى.

وقد سبق إلى كتابة رسالة حول القراءات الشاذة ـ وهى الدراسة الوحيدة حول مشكلاتها ـ الأستاذ الدكتور مصطفى مندور[1]، قدمها رسالة تكميلية، لنيل درجة دكتوراه الدولة من كلية الآداب، بجامعة باريس، وكانت بعنوان:
(Inventaire des lectures extra-Canonoque. d'apres les donnees de Tabari, d'Ibn abi Dawoud et d'Ibn Halawayh).

ويبدو أن أمرين قد أثّرا على عمق البحث فى هذه الرسالة ـ المكونة من (٢٥٦ صفحة) بما فى ذلك الفهارس والمراجع ـ **أولهما**: كونها تكميلية، **وثانيهما**: أن مادة هذه الكتب الثلاثة من الشواذ قليلة بالنسبة لما يمكن الحصول عليه من

(١) كان أستاذًا بكلية الآداب، بجامعة عين شمس، وقد حصلنا بصعوبة على ميكروفيلم للرسالة من مكتبة السوربون.

مادة فى الموضوع، ومن هنا اقتصر صاحب البحث على ترديد كلام الأستاذ بلاشير فى كتابه «مدخل إلى القرآن» Introduction au Coran فيما يتعلق بتاريخ المشكلة، على ما سيأتى، كما اقتصر على تقديم إحصائيات بعدد الروايات والرواة وتراجمهم فى كل من هذه الكتب الثلاثة، وهى أعمال ينبغى أن تتم على أنها تمهيد لعمل آخر، ربما كان الدكتور مندور يزمع إخراجه من بعد.

فالحقل كما نرى بكر، لم تمسَسْه يد، وقد انتهى بنا البحث عن مادته إلى عدة مصادر رأينا أن ما فيها من القراءات الشواذ يمثل تمثيلاً حقيقيًا أكثر ما يمكن جمعه، وهى:

١ ـ كتاب مختصر البديع ـ لابن خالويه.

٢ ـ كتاب المحتسب ـ لابن جنى.

٣ ـ كتاب شواذ القراءة واختلاف المصاحف ـ للكرمانى.

٤ ـ تفسير البحر المحيط ـ لأبى حيان.

٥ ـ ويضاف إلى هذه الأربعة كتاب المصاحف ـ لابن أبى داود السجستانى.

وهى باعتبارها مصادر تعد محصلة لأكثر ما ورد فى التاريخ من مؤلفات الشواذ، على ما سنبين بعد. وقد عكفت عليها، حتى نقلت رواياتها جميعًا، على سبيل الاستقصاء، مع القيام بمقارنة الروايات من أجل تحقيق ضبط الوجوه، واستكمال الأسانيد، وهكذا، حتى تمت لى مجموعة هائلة من الروايات، مصنفة بحسب القرّاء، مصحوبة بكل ما قيل فى تفسيرها فى المراجع، والمظان المختلفة. وبعد أن اطمأننت إلى تمام هذا العمل، بدأت فى التعرف على مستويات الشذوذ، ومناهج المؤلفين، وبخاصة ابن خالويه، وابن جنى، والكرمانى، وأبو حيان، باعتبار أنهم سجلوا القراءات الشاذة بوجه عام، على حين حدد السجستانى منهجه، حين حصره فى رواية اختلاف المصاحف التى أحصاها، إلى جانب ما روى فى تاريخ القرآن. ولذا نرى لزامًا علينا أن نعرِّف فى هذه المقدمة بمصادرنا، وبمقاييس الشذوذ فى نظر أصحابها.

مصادر البحث ومناهج أصحابها:

ففى مادة البحث يتميز نوعان من المصادر، يعبران عن مستويين من الشذوذ، فضلاً عن مراجع تاريخ القرآن، ويمكن فى ضوء هذين المستويين الحكم على المصادر، وعلى مناهج أصحابها.

المستوى الأول: ويمثله أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد (ت٣٢٤هـ) أول من وضع نظام القراءات المشهورة، فهو بذلك نقطة البدء فى تقعيد الشذوذ وتصنيفه، لأنه حين سبَّع السبعة أوجد نوعًا من الشذوذ النسبى، بأن اعتبر كل ما عداها شاذًا عنها وألّف هو فعلاً كتابه عن الشواذ، يوضح به الحد بين سبعته وما خرج عنها. وعلى الرغم من أن كتابه مفقود الآن فإن التاريخ قد احتفظ لنا بخير ما يمثل منهجه واختياره للشاذ. وهو من بين ما انبرى أبو الفتح عثمان بن جنى للدفاع عنه، والإيضاح عن علته، فى كتابه (المحتسب).

ولم يعتبر ابن مجاهد كل ما ورد عن الأئمة السبعة صحيحًا، وإن كان ماعداه شاذًا قليلاً بالنسبة إلى غيرهم من أئمة القرّاء، وقد ذكر ابن جنى من هذا القليل ما وجد له علة فى النحو أو اللغة تدعمه وتقويه.

ويمكن ترتيب القرّاء السبعة ترتيبًا تصاعديًّا بحسب ما روى عنهم من الشذوذ فى المحتسب هكذا :

١ ـ حمزة الزيات (٣ روايات).
٢ ـ الكسائى على بن حمزة (٧).
٣ ـ نافع بن أبى نعيم (٩).
٤ ـ عبدالله بن عامر (١٢).
٥ ـ عبدالله بن كثير (١٦).
٦ ـ عاصم بن أبى النجود (٢٥).
٧ ـ أبو عمرو بن العلاء (٦٠).

ولكنّا بالنظر فى هذا الذى اعتبر لهم من الشاذ، لم نجد مطلقًا ما يخالف الرسم، ولا ريب أنه مستوفٍ لشروط موافقة العربية، وإلا لما ذكره ابن جنى، فبقى أن شذوذه من جهة الرواية، حيث توفرت عنهم قراءات من طرق أخرى، أقوى من طرق هذه الروايات. فالذى لا شك فيه أن اختيار ابن مجاهد كان قائمًا على أساس الرواية قوة وضعفًا، مع مراعاة المقياسين الآخرين.

وقد تبع نفس الطريق الحسين بن خالويه (ت ٣٧٠هـ)، وبحسبنا أن نعلم أنه أخذ القراءات عرضًا على ابن مجاهد[١]، فاحترامه لمقياس الرواية لابد أن يتمثل فى اختياره للشواذ. لكنه بوصفه لغويًّا أخذ اللغة والنحو عن ابن دريد ونفطويه[٢]،

(١) طبقات القرّاء ١/٢٣٧ .
(٢) السابق.

وقد حشد فى كتابه (البديع) ـ الذى ورد إلينا مختصره ـ جمهرة من الروايات التى شذّت من هذا الجانب.

ولم يحدد ابن خالويه مصادره التى استقى منها مادة كتابه، وربما كان ذلك لأنه رواها نوادر فى اللغة والحروف، لا تحتاج فى رأيه إلى ذكر إسناد أو مصدر.

أما ابن جنى فقد التزم ابتداءً بتحديد مصادره، فذكر أنها خمسة، سيأتى الحديث عنها، وهى:

١ ـ كتاب ابن مجاهد ـ السابق.

٢ ـ كتاب اختلاف المصاحف لأبى حاتم السجستانى.

٣ ـ كتاب معانى القرآن لقطرب.

٤ ـ كتاب معانى القرآن للزجاج.

٥ ـ كتاب معانى القرآن للفراء.

ولما كان كتاب (المحتسب) هو آخر ما كتبه ابن جنى، فهو بذلك، وكما رأينا فى الواقع، يعد محصلة للمعرفة التى جناها الرجل طيلة حياته، وقد سلك فيه مسلكًا تطبيقيًا، يورد القراءة بسندها، ثم يناقشها، محتجًا لها بشواهد من الشعر، ومن القراءات الأخرى. وكثيرًا ما وردت فيه علل صوتية هى انعكاس لما قرره فى كتابه (سر صناعة الإعراب).

المستوى الثانى: وهو الذى يمثله بحق كتاب (شواذ القراءة واختلاف المصاحف)، لرضى الدين أبى عبدالله محمد بن أبى نصر بن عبدالله الكرمانى، وقد عثرت على مخطوطته بمكتبة الأزهر ـ برقم ٢٤٤ قراءات.

وقد سلك المؤلف فى كتابه هذا مسلك ابن جنى، حيث نص فى مقدمته على مصادره، قال: «هذا كتاب جمعته فى بيان شواذ القرآن واختلاف المصاحف، فيما صح عندى تلاوة وسماعًا وإجازة»[١]. ثم ذكر أنه خرّجه من اثنى عشر كتابًا، سيأتى الحديث عنها وعن مؤلفيها، إلى جانب أنه قد يذكر مراجع أخرى فى ثنايا الكتاب، كالنقل عن ابن عطية (ت ٥٤١ هـ)[٢]، كما يلاحظ أنه حذف الأسانيد تخفيفًا.

والكتب هى :

١ ـ اللوامح.

٢ ـ سوق العروس[٣].

(١) المخطوط / ٤ .

(٢) السابق / ٢٢٨ ، انظر البحر ١/ ١٠ .

(٣) قد تذكره بعض المراجع (شوق العروس) بالشين المعجمة.

٣ ـ الكامل للهذلى.
٤ ـ الإقناع.
٥ ـ المبهج.
٦ ـ الغاية.
٧ ـ كتاب اختلاف مصاحف الصحابة ـ المعروف بكتاب المصاحف لابن أبى داود.
٨ ـ معانى القرآن للزجاج.
٩ ـ الغرائب فى شواذ القرآن.
١٠ ـ مفردات ابن أبى علية، وكرداب ورش طريق المصريين.
١١ ـ كتاب الشواذ لأبى على البخارى.
١٢ ـ كتاب مجهول لم أتبين المراد منه (لعدم وجود نسخة أخرى).

ويتضح لنا مستوى الشواذ فى نظره من مقارنة رواياته بما ورد فى كتاب المصاحف، وقد قمنا بهذه المقارنة فى روايات مصحف ابن مسعود، فوجدناهما يلتقيان فى حوالى (٤٨٠) رواية من حوالى (٦٠٠) رواية ذكرها الكرمانى لابن مسعود، وبقية الروايات استقاها من المصادر الأخرى، وقد يكون انفرد بها فلم تذكر فى (مختصر ابن خالويه أو البحر أو المحتسب) وحينئذ تزداد درجة شذوذها، إذ كنا لا ندرى من أى الكتب استقاها، كما لا ندرى مناهج مؤلفيها فى الاختيار، ومدى وثاقتهم، باستثناء (كامل الهذلى)، الذى لم نحصل حتى على صورة منه (ميكروفيلم) نطمئن إلى النقل عنها، والحكم عليها.

على أن اعتماد الكرمانى على روايات من نوع ما ورد فى المصاحف ييسر لنا الحكم على اختياره فى مجموعه، وسيأتى هذا الحكم مفصلاً فى دراسة مصحف ابن مسعود، وبقى أن يتم فحص ما انفرد بذكره دون بقية مصادرنا، وهو أمر نرجو أن نقوم به فى نطاق عمل نقدى آخر، إن شاء الله.

ومن الممكن أن نقرر عمومًا أن مستوى الشذوذ لدى الكرمانى وأضرابه إنما يبدأ مما بعد العشرة بعامة، كما يأخذ عن العشرة شذوذهم من غير الطريقين المرضيين، وتلك هى فى الواقع نظرة ابن الجزرى وجميع المتأخرين إلى ما فوق العشرة، وهى قراءات (ابن محيص، واليزيدى، والحسن البصرى، والأعمش)، قال صاحب الإتحاف: «القراءات بالنسبة للتواتر وعدمه ثلاثة أقسام، قسم اتفق على تواتره، وهم السبعة المشهورون، وقسم اختلف فيه، والأصح، بل الصحيح المختار المشهور تواتره، كما تقدم، وهم الثلاثة بعدها (يعنى قراءات أبى جعفر يزيد بن

القعقاع، ويعقوب بن إسحاق الحضرمى، وخلف بن هشام)، وقسم اتفق على شذوذه، وهم الأربعة الباقية»[1].

ونلاحظ كثرة الاتفاق فى رواية الشذوذ بين الكرمانى وأبى حيّان، ولعل ذلك لاتحاد مصادرهما غالبًا، فكلاهما ينقل عن اللوامح، وعن كامل الهذلى، وغيرهما من كتب الشواذ، لكن الكرمانى فيما ظهر لنا أكثر استيعابًا لمراجع الشواذ من أبى حيان، برغم كلام نولدكه، الذى لم يطلع قطعًا على الكرمانى، وهذا واضح فى عدد ما نقلنا عنه من روايات اتفق فيها مع البحر، وانفرد بها دونه بل دون المصادر جميعًا. وبحسبنا أن نورد هذا المثال، وهو ذو دلالة: قال فى البحر: وقال ابن عطية: وقرأ «دُمت» (٣١/١٩) بضم الدال، عاصم وجماعة، وقرأ «دِمت» بكسر الدال أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو. انتهى، والذى فى كتب القراءات أن القرّاء السبعة قرأوا (دُمت حيًّا) بضم الدال، وقد طالعنا جملة من الشواذ فلم نجدها، لا فى شواذ السبعة، ولا فى شواذ غيرهم[2].

وهذا على حين أنها قراءة ابن مسعود، رويت فى كتاب المصاحف[3]، ويبدو أن الكرمانى لم يروها عن كتاب المصاحف، برغم أخذه عنه، فقد رواها للسلمى ويحيى والأعمش[4]، ولم يَرِدْ فى المصاحف شىء من ذلك.

وقد ظهر من النص الأخير لأبى حيّان أنه يُحل السبعة مكانًا مقابلاً لما سواها، تأثرًا بابن مجاهد. هذا هو حديث المصادر، ومستوى الشذوذ.

أما مؤلف الكتاب (الكرمانى) نفسه، فقد أعيانا البحث عن حقيقته، فهو لم يذكر فى أى كتاب من كتب التراجم أو الطبقات التى بين أيدينا، ولمّا لجأنا إلى بروكلمان وجدناه يقول: «أبو عبدالله محمد بن أبى نصر الكرمانى، يرجح شبيتالر A. Spitaler أنه من علماء أوائل القرن السابع الهجرى، وله رسالة فى القراءات الشاذة، فى الأزهر رقم ٢٢٤»[5]. وهكذا نجد الكرمانى مجهولاً عصرًا ومكانًا.

وفى مراسلة مع شبيتالر[6] لمعرفة مصدره فى هذا الحكم ـ أخبر أنه ربما يكون

---

(١) إتحاف فضلاء البشر / ٩ .
(٢) البحر ٦/ ١٨٧ .
(٣) جفرى / ٥٨ .
(٤) الكرمانى / ١٤٧ .
(٥) بروكلمان: تاريخ الأدب العربى GALS ٢/٨٩٢ ـ الفصل الخاص بمجهولى العصر والمكان ـ علم القراءات رقم ٣٧ .
(٦) مستشرق ألمانى معاصر، وقد جرت المراسلة بوساطة تلميذه الزميل الدكتور رمضان عبدالتواب فى ١٩٦٣/١٢/٣٠ .

قد اعتمد على ما ذكر فى صدر الكتاب من المراجع، وربما يكون بعد البحث فى المخطوطة ذاتها. لكن يبدو لنا أن الأستاذ شبيتالر لم يتجول فى المخطوطة إلا لمامًا، نظرًا لأنه حدد تاريخ الكرمانى فى ضوء آخر المراجع صدورًا، وهو على أقصى تقدير (الغاية) لأبى العلاء الهمذانى، إن كان هو المراد، وتاريخ وفاة الهمذانى هو عام (٥٦٩هـ).

وعلى ذلك فإن الكرمانى لا يمكن أن يكون قبل النصف الثانى من القرن السادس الهجرى. على حين أن ذلك لا يؤدى إلى المقصود مباشرة، وبطريقة مأمونة، فمؤلف كتاب (الغاية)، كما سنرى، غير محدد، وعليه فلا يصح أن يقاس غير محدد على مثله، لأن ذلك إمعان فى التيه.

وخلال دراستنا لما حوت المخطوطة من روايات، عثرنا على عدة ملاحظات نثبتها هنا أولاً:

الأولى: جاء فى ص (٨١) فى مناسبة قراءة أُبَىّ ١٠٩/٦ «لعلها إذا جاءت» نظير: «أنها إذا جاءت» فى القراءة العامة. قال: «وجاء أنّ بمعنى لعل، فَكَسَر الرازى رحمه الله»، وهو يقصد بالرازى هذا: الإمام محمد فخر الدين بن عمر بن الحسين الرازى (ت ٦٠٦)، وقد ورد فى تفسيره أن (أنّ) بمعنى لعل، وأنه مدح القراءة بكسرها، فقال: «وهى القراءة الجيدة»[١].

الثانية: جاء أيضًا فى ص (١٠٤): «وعن الأعرج ١٠٩/٩ «هَارَّ» بالفتح وتشديده، وتخفيفه، ذكره الدهان، والدهان هذا هو: على بن موسى بن يوسف أبو الحسن السعدى المصرى، المعروف بالدهان، إمام مقرئ ثقة، توفى فجأة عام (٦٦٥هـ)»[٢].

والثالثة: وجاء فيها ص (٢٧٠): «وسمعت شيخنا الإمام، تاج القرّاء، أبا القاسم محمود بن حمزة بن نصير، قدّس الله روحه العزيز يقول: «الصبِر» قراءة أبى عمرو، يعنى بكسر الباء» وقد ترجم له ابن الجزرى قال : «محمود بن حمزة ابن (نصر)، أبو القاسم الكرمانى، المعروف بتاج القرّاء، كان فى حدود الخمسمائة، وتوفى بعدها»[٣].

من هذه الملاحظة الثالثة يجب أن نبدأ فى تتبع الخيط، لمعرفة شىء عنه، فهو

(١) التفسير الكبير ١٣/ ١٤٤ ـ الطبعة الأولى.
(٢) طبقات القرّاء ١/٥٨٢ .
(٣) طبقات القرّاء ٢/٢٩١ .

يذكر فيها (سماعًا) عن شيخه، وشيخه هذا (كرمانى) أيضًا، لكن تاريخ وفاته مجهول، يرجح ابن الجزرى أنه بعد الخمسمائة، ولابد أن عبارة (وتوفى بعدها) تعنى أنه عُمِّرَ حتى بدأت الستمائة، ثم توفى، يدفعنا إلى هذا أنه نقل قطعًا عن الرازى، وهو متوفى فى بداية القرن السابع، وأخبر عن (الدهان)، وقد توفى فى النصف الثانى من القرن السابع، فإذا صح هذا قلنا: إن الكرمانى (صاحب شواذ القراءة). من علماء أواخر القرن السابع، وقد يكون نقله عن الدهان سماعًا أيضًا، وقد يكون أخذًا مما جمعه عبدالرحمن الصفراوى وغيره[1]، ويكون سماعه من شيخه أبى القاسم قد حدث فى أواخر حياة أبى القاسم، وأوائل حياته هو، حين كان غلامًا حدثًا.

وعلى هذا يبدو أن (الكرمانى) قد عُمِّر طويلاً، ولا غرابة، فقد قالوا عن عبدالرحمن الصفراوى (ت ٦٣٦): إنه أجاز لجماعة بدمشق تأخرت وفاتهم إلى بعد العشرين وسبعمائة[2] أى إنهم عمِّروا قرنًا كاملاً.

بقى أن أقرر فى نهاية هذا الحديث عن مصادر البحث أنى أخذت من الشذوذ بكلا المستويين، وأنى اعتمدت على ما جمعت من مادة الشواذ، من كتب: المحتسب، ومختصر البديع، وشواذ القراءة، والبحر المحيط، كما اعتمدت على مراجعة كتاب المصاحف لابن أبى داود، وعلى مراجعة بعض التفاسير كالقرطبى والكشاف، فى بعض المشكلات.

منهج البحث:

ولعله قد وضح جليًّا أن الخطوة الأولى فى التعرُّف على مشكلتنا هى فهم تاريخ القرآن، بحثًا عن علة الشذوذ، وعن بدء تشذيذ القراءات.

والقراءات ديوان خصائص هذه العربية، وليس من الممكن استيعاب كل مستويات الدراسة فى الشواذ منها، فى رسالة واحدة، مهما يكن حجمها، كما أنه ليس ممكنًا تناول كل الظواهر الصوتية فى هذه الشواذ، والتى تدل كثرتها، وتناقضها غالبًا بين القبائل، وأحيانًا فى القبيلة الواحدة، على تعقد تاريخ اللغة الفصحى، ليس ممكنًا تناول ذلك كله فى دراسة واحدة، ولذا عوَّلنا على أن نحقق مستوى من الدراسة يساعد على فتح آفاق جديدة، لتعمق أسرار لغة القرآن، وتطورها على مر العصور.

(١، ٢) انظر ترجمته فى الطبقات ١/٣٧٣.

وهذا الكتاب يشتمل على تسعة فصول عالجت فيها تاريخ القرآن، ابتداءً من قضية الأحرف السبعة، حتى آخر ما أُلّف فى القراءات الشاذة، بمفهومها العام. ومنهجنا فيه تاريخى، مع اعتناء خاص بنقد مذاهب المستشرقين، ومن أخذ عنهم، والتصدى لما أهملته المحاولات السابقة من مشكلات خاصة بذلك التاريخ، على الوجه التالى :

الفصل الأول: يتناول دراسة حول حديث الأحرف السبعة، بالإحالة إلى ملحق الكتاب، الذى ضم رواياته بأسانيدها المختلفة.

والفصل الثانى: يعالج قضية النص القرآنى بين المشافهة والتسجيل، ويناقش من خلال ذلك معرفة النبى للكتابة، ودور كتّاب الوحى وحفّاظه.

والفصل الثالث: يعرض لمشكلة الخط الذى كُتب به الوحى فى عهد النبى، من حيث أصله وتقاليده.

والفصل الرابع: يتصدى لمشكلة من أخطر مشكلات التاريخ القرآنى، هى مشكلة «القراءة بالمعنى»، وهى التى كان للمستشرقين دور كبير فى تضخيمها، والتهويل فى أخبارها وفى نتائجها، وهذا الفصل يتصدى للمستشرقين، من حيث هم منهج متمثل فى أعمالهم وأعمال تلاميذهم من العرب والمسلمين.

والفصل الخامس: يناقش وضع النص القرآنى بعد وفاة النبى ﷺ فى عهد أبى بكر وعمر، وفى عهد عثمان، ويرد عن هذه الفترة شبهات أُثيرت حولها، تاريخية أو أصولية.

والفصل السادس: يواجه مشكلة المصاحف المنسوبة إلى كثير من الصحابة والتابعين، كما يواجه دعوى المستشرقين بأن مصحف عثمان الذى أقرته جماعة المسلمين مصحف يمثل الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع الإسلامى، ثم يقدم دراسات على الطبيعة لعدة مصاحف بارزة فى التاريخ القرآنى، هى مصاحف ابن مسعود، وأبَىّ، وابن عباس، وعلىّ.

والفصل السابع : يستطرد فى دراسة حركة القراءات، بحثًا عن بدء تشذيذها أو تصحيحها، كما يدرس اتجاهات التطور فى مقاييس الصحة والشذوذ فى القراءات القرآنية، ويدفع شبهات لحقت بأثر الرسم العثمانى فى القراءات، ثم يعرض الأثر التطبيقى لمقاييس الصحة والشذوذ.

الفصل الثامن: يعالج مشكلة القول بخلق القرآن فى القرن الثالث الهجرى وَذيول هذه الفتنة فى الفكر العلمانى الحديث.

الفصل التاسع: يعالج جوانب الفتنة المعاصرة ومحورها ما سمى بالفرقان، وهو التحدى الجديد الذى تحمل رايته قوى الاستعمار الجديد.

وبعـــد : فليس هذا الكتاب تاريخًا تتبعيًا للقرآن، وإن تضمن أغلب أحداث هذا التاريخ، وإنما هو مواجهة لما ثار فى وجه هذا التاريخ من ضلالات وشبهات طالما انخدع بها شبابنا المثقف، وهو يتناول ثقافته على مائدة الغرب، ولقد يلمس القارئ فى متابعته غلبة الأسلوب العلمى، والتركيب المنطقى للحقائق، دون لجوء إلى وسائل بيانية، قد تهزه وتطربه، ولكنها عاجزة تمامًا عن إقناعه ودعم يقينه.

وقد تعمّدنا هذا السلوك لأمرين :

أولهما: أن هذا الكتاب ـ كما سبق ـ مدخل إلى دراسة علمية متعمقة فى أخطر قضايا تاريخ القرآن، ولغة القرآن، وهى القراءات الشاذة. وهى الدراسة التى تصدر بعنوان : «القراءات القرآنية ـ فى ضوء علم اللغة الحديث».

وثانيهما: أن ما يهم فى دراسة أمثال هذه المشكلات ليس هو الجانب الجمالى فى النص على أية حال، وإنما هو الفكر النقدى، وهو ما نرجو أن نكون قد بلغنا منه مستوى مقنعًا.

ولست أريد أن أضع القلم قبل أن أسجل هنا عرفانى العميق لأستاذى الدكتور إبراهيم أنيس الذى عاش معى هذه المحاولة، دفعنى إليها، وسدد خطاى فى طريقها.

والحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.